متى رأيت الله ؟

بقلم: محمد جمال الدين حسن

obeikan.com

الآن أجلس أمام نفسي لكي أتكلم معها عن الله، ومتى رأته، وعن معانيه التي تكونت بها... ولكن يبقى سؤال واحد سيحدد كل ما سيأتي: هل حقًّا رأيت الله؟

دائمًا ما أبحث عن إجابة شافية لذلك السؤال بداخلي، ولكي أصل إلى إجابة احتجت إلى رحلة بحث طويلة بين مراحل النفس والحياة، بين أفواه المتكلمين وعيون الصامتين.. وبين مشاعر المتحابين وصدق المريدين... احتجت «نفسي» لكي أصل بها إلى نفسي أيضًا! احتجت كل بسمة تضاهي قلبي وكل عقل يحن على فكري.. احتجت إلى أذن تسمعني وعين تطمئنني.. كنت أسأل عن الله، ولا أجد من يفك غموض أفكاري!! بِتُّ متفلسفًا مستعرضًا لمهارات الحديث عند من يعلم ولا يريد أن ينقل علمه إلى غيره!! بِتُّ شابًّا صغيرًا لا يفقه!! بِتُّ الشاب الملحد عند البعض، والمؤمن عند آخرين، والمنافق عند المتشددين، والباحث عند القليلين، والطائش عند المسنين، والمتفلسف عند بعض، والمغضوب عليه عند بعض، والمتمكن منه الشيطان عند آخرين، والمنهمك في أمور الدنيا عند بعض... بِتُّ كريشة طائر سقطت من جسده، فكان ذلك الجسد هو الحياة التقليدية التي تقول: «ممنوع الأسئلة عن الله، ولا تفكر لكيلا تكفر»!! أما أنا فكنت الريشة التي كلما وجهها الهواء إلى مقصد مختلف لم تسلم من الحكم وإطلاق الألقاب والتصنيفات عليها!! أطير مع الهواء، ولكني أريد الوصول إلى موطن أستقر عليه، تجردت عن مختلف الآراء لكي أصل إلى تلك الحقيقة.. كنت أصرخ فيمن حولي: «كفاكم عنادًا وأحكامًا، وقولوا لي: أين ومَن الله؟»

وهل أنا المغضوب عليه منكم، لأنني أريد الوصول إلى بث الروح والاطمئنان لقلبي ونفسي وعقلي؟

وفي الحقيقة ليست تلك رحلتي بمفردي، ولكنها رحلة جيل كامل عكف عقله على طرح المسائل الوجودية بداخله، ليلحد البعض، ويصمت البعض، ويقرر محاربة نفسه من أجل قمع تلك المسائل بداخله خوفًا من المجتمع! بينما ذهب آخرون إلى اختراع مذاهب فكرية عن الله والدين بداخلهم، وأقر البعض الآخر بنظرية «العيش والسلام»، وهي الإقرار بالتقليد لمجتمعه وعدم الخوض في تلك المسائل!! وجدت مؤلفات عديدة وعلماء وأقاويل ومناقشات ومنازعات فكرية

وأخرى فلسفية، فعكفت على بعضها لتبوح لعقلي وفكري إلى أن وجدتني تائهة في بحر عظيم من الأطروحات والفلسفات والأفكار والإشكاليات عن حقيقة الله وعن حقيقة الكون وفلسفيات الوجود والنظريات الميتافيزيقية...وهنا وجدت الله بين كل ذلك.. وجدته بين مواضع البحث.. بين مواضع الضعف والقوة.. بين كل تلك الفلسفات والمنازعات والأفكار التي تثبت باليقين أن كثرة الاهتمام بذلك الأمر العظيم والبحث عن «الإله» يقتضي حتمًا وجود ذات مطلقة في الغيب؛ صدر عنها الكون والوجود وأن تلك الذات الأزلية القديمة العظيمة خفية عنا.. ولكن حقيقتها والعلم بها تنكشف بداخلنا، وهنا يتحقق معنى «الرؤية».. فبالتأكيد لا أقصد من معنى الرؤية هنا الإبصار، ولكن «الرؤية» التي أقصدها هي انكشاف الحقيقة بداخلنا والتمسك والسريان على طريق معرفة الله.. فهي علاقة رابطة بين حواس النفس والفكر.. علاقة عاشق بمعشوقه.. علاقة تثبت بشكل مستقل لا نعلم من أين.. ولكنها تثبت وتسكن نفسك وتُهدئ من فكرك وتنير قلبك... علاقة داخلية تقول لك: إنك لم تنتبه إلى حقيقة الله وسط بحور أفكارك! فهو إله، والإله يجب ألا يحيط به عقل بشري لجلاله.. وإن مجرد تفكيرك بذلك هو دليل على وجوده، فكيف يُتصور لعقل بشري مخلوق أن يصل إلى حقيقة خالقه، فإن تفكيرنا في الله والبحث عنه هو أهم دليل على وجوده، فمن أوجد كل تلك الطاقة البحثية والمعرفية بتلك الحرية الكبيرة...بالطبع هو إله حكيم خبير يعلم ويزرع تلك الطاقة في روح ونفس محبيه.

هنا استقرت نفسي، وبدأت رحلة بحث جديدة عن «الله»، ولكن تلك المرة ليست للبحث عن ذاته، بل للبحث عن جماله ومعانيه... هل تذكر حبيبتك حينما وقعت في غرامها فأردت معرفة كل شيء عنها لدرجة تجعلك تتأمل في مسامها؟ تريد ذلك لأنك تحبها، فما بالك حينما نحب ونعشق «الله»؟ بالطبع هو حب يختلف عن ذلك الحب البشري، ولكن حقيقة الحب هي أصل كل شيء.. هي المحرك والباعث

الداخلي.. هي وعاء استقرارك وثبات أفكارك ومحل راحتك.. هي أسرع طريق يصل بنا إلى «الله».

حينما تُوُفِّيَ أبي ولم أتجاوز عشر سنوات رأيت الله في طمأنة قلبي، ولم أكتشف تلك

الحقيقة إلا الآن، فهو لم يتركني أبدًا في أية لحظة.. رأيته في لحظات الضعف والألم.. رأيته في كل ما هو جميل حولي؛ أبدع في صنعه للحياة، فكم مرة زارت عينك مشهدًا من مشاهد الطبيعة من شروق، أو بحار، أو خضار في غابات، أو إبداع في صنع الإنسان، أو إبداع في تركيب عقل بشري يفكر، فيبني، فيخترع، فينير الحياة!! أترى كل ذلك الجمال؟ فما بالك يا صديقي بجمال من خلق الجمال؟!

مهما طال الكلام وكثر فلن يكفي عن «الله»، لأن الكلام عن الجمال ومنبعه لا ينتهي أبدًا، ولكن إذا أردت يا صديقي الوصول، فعليك بالتجرد من كل الأفكار، واترك لنفسك حرية البحث بداخلك، ولا تعاند مع نفسك أبدًا، ساعتها ستصل، وستجد الله بداخلك وستريد لكل من تحبه أن يصل إلى تلك الحقيقة مثلما وصلت.. وأما عن طريق السير إلى الله فهو لا ينتهي أبدًا، وما دمنا عليه سائرين فسنكتشف معاني أكثر إبداعًا وعمقًا!!

obeikan.com